مقتطف قراءة من كتاب

إنسان "روبرت كوخ" البدائي...الخطأ الأكبر لطبيب الأوبئة

Robert Kochs Affe
Der grandiose Irrtum des berühmten Seuchenarztes

دار هيرتسل للنشر.

المنزل الصيفي

برلين في صيف وخريف عام ١٩٠٣

كان للقرد الذي فتح له الباب أصابع رقيقة ويتمتع بنوع من دماثة الخلق، كأنه تلميذ للعزف على آلة البيانو، انتهى للتو من عزف مقطوعة العازف تشيرني "مدرسة البساطة"، شيء من هذا القبيل.

سيسأل "فالتر هيسه" نفسه لاحقًا لمّا بحق السماء تذكر في هذه اللحظة تلميذ آلة البيانو. ربما معطف القرد المصنوع من القطيفة هو السبب، لونه الأخضر بهت من كثرة الغسيل، الجيوب الجانبية تغلقها ثلاثة أزرار بدقة فائقة.

مال القرد برأسه وأمعن النظر إلى نقطة أعلى كتف "هيسه" الأيمن، نقطة في الخلفية على حافة سياج نبات شجرة الحياة. بدا القرد مشتتًا بعض الشيء؛ ولكنه كان ودودًا. قال هيسه في نفسه ربما أفزع جرس الباب هذا المسكين. ألقى المعطف في الأغلب سريعًا فوق أكتافه ليفتح الباب.

قال هيسه: "أريد لقاء البروفيسور كوخ من فضلك، لقد طلبني البروفيسور، يبدو أن معهد الصحة العامة قد بحث عني، الأمر يتعلق بالتعيين إن صح التعبير."

شعر هيسه فجأة ببرودة الطقس المسائية المعتادة في العواصم. على العموم: ألا يتسم هذا الموقف بالهزلية بعض الشيء؟ شَعرْ القرد لم يكن مُمشَّط بعناية، التصقت خصلاته الخفيفة بخلفية رأسه المسطح، مثل رضيع نام فوق الحليب الذي سال من فمه. لم يكن هذا الحيوان على مستوى النظافة التي نتوقعها من خادم أستاذ الصحة العامة الشهير. أليس علم الصحة العامة هو علم النظافة والنقاء في حد ذاته؟

سيُطرح لاحقًا سؤال عن قناعة هيسه الفعلية بأن القرد كان يفهمه حقًا. من الصعب الرد على هذا السؤال. من المؤكد فقط في هذه اللحظة أن هذه العيون الساخرة تمنحه الهدوء. كأنه لم ير

كل هذا من قبل، مرت نظراته الرقيقة على ياقة هيسه المتيبسة ثم على بزته السوداء التي لا تخرج من خزانة الملابس إلا للجنازات.

لم يكن القرد في عجالة من أمره، نظر في هدوء إلى يدي هيسه ثم إلى ركبتيه، ثم بالعكس. كأن المسافة بين سبابته وحتى ركبته تعلن عن حجم أهمية طلب هذا الرجل الغريب؛ الذي رن جرس الباب أثناء العزف على آلة البيانو.

بات الدكتور هيسه مقتنعًا: لا يريد هذا الحيوان فهمي. بالطبع يمكننا ترويض القرود، فهم يعزفون مقطوعة تشيرني على البيانو. ولكن هل يمكنهم إبلاغ صاحب المنزل بطلب فالتر هيسه؟ هل يمكن الاعتماد على القرد في هذا الشأن؟

بدأ هيسه يتصبب عرقًا، ويبحث عن طريق ينسحب منه.

كان من المفترض أن يلحظ وجود رجل غير محدد العمر يرتدي مئزرًا طويلًا. كان يقف على بعد خطوات حيث يبدأ سياج شجرة الحياة. كان يستند على شوكة الحشائش. هذا الشخص هو فيتولد كرول، خادم البروفسور كوخ الذي يقوم بكل المهام: مدير المنزل، خبير في أنواع العشب، مسؤول الحفظ، مساعد في المعمل وأيضًا مسؤول عن أعمال الحديقة، كل ما يخطر على بالك. من المؤكد أن هيسه كان يمكنه رؤيته.

راقب فيتولد هيسه بدقة، على الرغم من أن الدكتور شخص عادي تمامًا. ذقنه مهذبة، شاربه كثيف بعض الشيء، عيونه الرمادية بها حوَّل بسيط، جبينه عالٍ، بدأ شعره يتراجع مبكرًا. زعمت صديقته الأولى إنه يشبه دوستويفسكي على نحو ساخر، وإنه ذو ملمح روسي. أما فاني، السيدة التي تزوجها هيسه لاحقًا، لم تقل للأسف شيئًا من هذا القبيل.

اعتاد فيتولد تذَّكُر أبسط الأمور جيدًا، سمحت له الظروف بذلك لأن معظم المحيطين به لا يلحظون وجوده. ومن يلحظ وجود عامل حديقة عجوز يقف أمام سياج شجرة الحياة؟ فضلًا عن فطر أذن يهوذا التي لا يمكن الاستغناء عنه في سبيل القدرة على الملاحظة الدقيقة. إنها تنمو فوق لحاء شجر البلسان. من يحب الملمس الغضروفي لن يجد الطعم سيئًا. هذه البروزات، تفاجئني في كل مرة بصلابتها داخل هذا الأحمر المخملي الملمس. بعد تناولها تصير الخطوط في هذا العالم أكثر حدة. أنصح بتناولها في حالة ضعف النظر أيضًا.

كانت البلبلة التي أصابت هيسه أمام باب المنزل مفهومة. إنها أول زيارة للعاصمة برلين، ثم يطرق باب العظيم السيد كوخ. صحيح أنه تجول في العالم قليلًا. قادته الحرب في عام ١٨٧١ حينما كان يعمل طبيبًا على الجبهة إلى أبواب مدينة باريس؛ ولكن حالت اتفاقية السلام دون زيارة هذه المدينة الجميلة. عمل طبيبًا على متن سفينة ووصل إلى مدينة نيويورك، وعبر بعد ذلك الشاطئ الشرقي للقارتين الأمريكيتين. درس في ذلك الأثناء أمراض السفر عبر البحار، وتعرف بعد ذلك على زوجته فاني؛ أم كان بالعكس؟ يعمل في الوقت الحالي طبيبًا للحي في مدينة شفارسنبرج بمنطقة جبال الخام. أعمال التعدين، أمراض الرئة بسبب الأتربة، سرطان

المثانة، رعشة مزمنة بسبب الانهيارات، اختناقات، سيقان مبتورة، وسرطان الرئة. سيقول لاحقًا لفيتولد إنها مادة مثيرة للاهتمام، قلما هناك مجال للحديث عن هذه الأمور.

وقف الدكتور هيسه إذًا فاقدًا للحماس أمام باب منزل السيد كوخ، وعلى الرغم من خبرته المعقولة في السفر حول العالم، فإن هذا أول قرد يفتح له الباب.

امتدت فترة الصمت بينهما. شعر هيسه أن تكرار طلبه ربما سيحل المسألة. كرر طلبه ببطء ووضوح: المسألة متعلقة بتوظيفي والبروفسور لديه فكرة عن الموضوع.

ظل القرد موجهًا نظرته الثاقبة إلى الرجل الغريب أمامه، ثم بادر بإغلاق الباب في وجه هيسه، تركه برفق مواربًا واستدار للخلف. رأى هيسه عبر فتحة الباب أكمام المعطف المتدلية التي تغطي أنامله وخصر المعطف الساقط.

إنه راهب صغير، يعيش وحيدًا في دير ياباني، هكذا اختفى الحيوان وسط السكون. المعطف المصنوع من القطيفة مقاسه كبير عليه.

سمع هيسه بعدها بقليل صوت نسائي: "شتورم! شتورم! كم مرة قلت لك ألا تقترب من الباب حينما يرن الجرس. هذا ليس من واجباتك أيها الإنسان الفضولي."

فُتح الباب مرة أخرى، سيدة رقيقة ووجهها الساخن تحيط به خصلات شعر سوداء كثيفة. نظرت إلى هيسه في غضب، شفاها العليا متضائلة، يقف القرد بجانبها. اسمه شتورم إذًا، وضعت ذراعها على كتفه. هذه السخرية البعيدة في عيون الحيوان. لم يكن هيسه متأكدًا من قبل ولكن صار الأمر لا شك فيه. مشاعر هيسه مفهومة، قرد بمعطف مُفصل وجيوب مغلقة بأزرار يفتح له الباب. ألن يشعر أي شخص في هذه اللحظة أن العالم بأكمله يسخر منه؟

قال هيسه: "نهارك سعيد، اسمي فالتر هيسه، الدكتور فالتر هيسه. أنا مطلوب للحضور أمام البروفسور كوخ بخصوص الوظيفة، أقصد الوظيفة الشاغرة، أريد التقدم لشغلها...." صمت ولم يجد كلمات.

"التقدم لشغلها؟ حسنا أيها الدكتور هيسه." فوجئ بخشونة صوتها وطبقته المنخفضة، ربما تعاني من آلام في الحلق. واصلت: "إذًا آنا السيدة كوخ، لقد تعرفت على شتورم. تفضل بالدخول، سوف أسأل زوجي إن كان لديه وقت. لا أريد الإساءة إلى ضيوفي ولكنني لن أفهم أبدًا السبب الذي يجعل زوجي يستقبل المتقدمين للوظائف في المنزل بدلًا من المعهد."

بعد مرور سنوات عديدة، وبعد مغادرة هيسه وزوجته لبرلين بفترة طويلة، سيظل يحب سرد قصة دخوله منزل عائلة السيد كوخ. ومع كل مرة يحكي فيها يصير القرد شتورم أكثر رهبنة، والسيدة كوخ أكثر نحافة، والمنزل أكثر صمتًا، ويختفي فيتولد كرول أكثر وأكثر خلف شجرة الحياة.

همت السيدة كوخ مع شتورم بالدخول إلى المنزل قبل هيسه، واضعة ذراعها على كتف القرد. قاد الاثنان هيسه عبر مدخل واسع الأرجاء، ثم ممر رائحته قرنبيط خارج من الفرن، ثم سلم، حتى وصلوا إلى باب بنقوشات كثيرة.

قالت السيدة كوخ وهي تفتح الباب الضخم والثقيل: " روبرت، حضر واحد من هؤلاء الشباب الذين تصر على دعوتهم إلى المنزل بدلًا من المعهد."

تملكت هيسه في هذه اللحظة فكرة أن هذه الزوجة الرقيقة للبروفسور ليست بالتأكيد أكبر منه في العمر؛ بل ربما تكون أصغر منه أيضًا.

"أليس من الممكن أن تفصل بين حياتنا الخاصة وشغل المعهد بشكل أفضل؟ أنت تبالغ في تقدير اهتمامي بشؤون العاملين في المعهد."

يبدو أن غضبها لم يكن منصبًا على هيسه شخصيًا، على العكس: كانت تبتسم له كأن هناك سر صغير جمع بينهما منذ دخوله من باب المنزل.

أما القرد فوجد أسلوب التقديم في الأغلب مناسبًا. من المؤكد أن نظرته مسترخية، مما ضاعف من اضطراب هيسه.

"تفضل أيها السيد... السيد...، أيًا كان أدخل. ليس ذنبك أن زوجي فاشل في إدراك الفرق بين بيتننا المتواضع ومعمله الملكي. تفضل بالدخول."

من المستحيل أن تكون أكبر منه في العمر.
دخل هيسه وهو متردد.

جلس البروفسور كوخ خلف مكتبه. في خيال الجميع هو رجل ضخم الجثة. هل لأن الرأس الكبيرة التي تستند على يد ممتلئة تفكر بحرية أكبر؟ لم يكن أكثر طولًا من رجال آخرين في عصره، على العكس. هو كان أنسب لهذا الزمن من غيره الذين كانوا أكثر طولًا منه. ربما يرجع السبب إلى جلوسه متكومًا. لم يبدو أكبر من شتورم وهو في وضع الجلوس هذا. إن طُلب منهما الوقوف صفًا، سيكون ذلك واضحًا.

أشار كوخ إلى المقعد أمام المكتب.

قالت السيدة كوخ: " سأترك الأساتذة وحدهم، روبرت لا تنسَ أننا ستناول العشاء حالًا."

قال كوخ: "من فضلك خذي القرد معك، وأنت أيها الشاب فلتجلس، أنت تربكني بوقوفك هذا." نزع كوخ نظارته وفرك عينيه الملتهبتين: "ما اسمك؟"

"هيسه سيدي البروفيسور، فالتر هيسه، أعمل طبيبًا للحي في مدينة شفارسنبرج. سمعت في معهد الصحة العامة أن هناك وظيفة شاغرة في معملك. قيل لي أنه يجب زيارتك في المنزل، وإلا ما تجرأت على إزعاجك هنا. أنا لديَّ اهتمام كبير بالصحة العامة، بكل تأكيد. ربما يتاح لي التعلم منك."

"فعلًا، لك اهتمام؟ وتريد التعلم؟"

مال كوخ برأسه، يبدو أن هذه عادة في منزل آل كوخ. أخذ يقرص بسبابة وإبهام يده اليسرى شحمة أذنه، كأنه يلتقط بعناية بإبرة الكلمات والأصوات التي وصلت إلى هذا المكان ليدفع بها إلى داخل القناة السمعية، لتخضع هناك إلى لكشف دقيق قبل أن تدخل إلى المخ.

"هل أديت الخدمة العسكرية؟"

"نعم، سيدي البروفيسور، كنت طبيبًا ميدانيًا في فوج المدفعية السابعة بمنطقة شبيشرن."

ظل كوخ منشغلًا بقناته السمعية اليسرى.

لم يعرف هيسه سبيلًا لإنجاز مصلحته، صحيح أن شهاداته والدبلومة التي حصل عليها معه، وكذلك شهادة الدكتوراه التي كتبها تحت إشراف ليبريشت فاجنر عن سقف الحلق اللين، وأخيرًا بحثه عن دوار البحر. ولكن شيء ما بداخله أوحى له بعدم اهتمام كوخ.

هل يتحدث عن الشطافة؟

كان موضوع الشطافة كالتالي: كانت تهم فالتر هيسه حقًا، إذ كانت يجسد قمة التقدم الصحي. كان أصدقاؤه يعربون عن اندهاشهم من أن شخص مثله مناصر للطب الرومانسي معجب بهذه الأداة الدنيوية. كان يرد بابتسامة قائلًا إن الشطافة والرومانسية لا تتناقضان، فضلًا عن كونه شخصًا متناقضًا ويفضل أن يكون ذلك. روسي بعض الشيء، ألماني في الأغلب، وقليل من الحصافة الإنجليزية، هكذا كان يرى نفسه.

لم يكن بإمكان هيسه تحديد سبب قدومه إلى برلين. ربما أراد فهم الطب الذي يمارسه في شفارسنبرج بشكل أفضل؟ أن يتعلم لدى كوخ المنهجية العلمية الحديثة؟ هل سينال شهرة إن درس لدى العظيم روبرت كوخ وسيتقدم في مشواره الوظيفي؟ أم إنه يبحث عن بعض التغيير، فهذا مشروع أيضًا؟ هل كان يخشى ملل زوجته الأمريكية فاني من الحياة الريفية في شفارسنبرج؟

سأل كوخ مجهدًا: "هل اكتشفت أيها الطبيب أي شيء من قبل؟ ربما شيء وجدته مهمًا، ولم يره شخص آخر من قبل؟"

"سيدي البروفيسور، لن تجد في شفارسنبرج سوى الحثالة لتكتشفها، ولهذا السبب تحديدًا أرغب في القدوم إلى برلين."

"أيها الشاب، أنت تستبدل الراحة والاستقرار بالقلق الأبدي. ألا تعرف الصعوبات التي تصاحب كل ما هو جديد؟ ليست المراعي البعيدة هناك التي يسترخي القطيع فيها ويركض إليها كل يوم؛ بل هنا.." يدق البروفيسور على صدره. "هنا داخلك وداخل قلبك. نحن نخاف دائمًا مما هو جديد في حد ذاته، بل ونتغذى على هذا القلق، أؤكد لك: هذه ليست حياه سهلة. من ناحية أخرى نحتاج لمساحات من الظل لنتجاوزها."

صمت كوخ، وتلفت هيسه في المكتب من حوله، ولكن دون تحريك رأسه حتى لا يترك لدى كوخ انطباعًا إنه لا ينصت إليه باهتمام. ربما هناك موضوع صالح للحديث مُعلق على الحائط.

وصلت النوافذ حتى الأرض وكانت تطل على حديقة؛ ولكنها لم تكن ظاهرة للعين بسبب الستائر نصف المغلقة.

فوق منضدتين رخاميتين وُضِع مجهرين وبجانبهما علبتين مبطنتين بالقطيفة داخلهما ألواح زجاجية لا يتجاوز طولها طول عقلة الإصبع. يجري فوق هذه الألواح فرد وتجفيف وتلوين البكتيريا حتى يتسنى الكشف عليها تحت المجهر. كان هيسه يعرف تلك التفاصيل بالطبع؛ لأن مجلة "جارتن لاوبة" كانت تعرض وسائل عمل البروفيسور كوخ بالتفصيل.

وسط أرفف الكتب المزدحمة كانت هناك أقنعة أفريقية. بعضها منحوت من خشب لونه لون الحديد، والبعض الآخر مصنوع من الجذور أو من لحاء الأشجار أو من حجر أملس، مصبوبة في البرونز ومرسومة فوق جلد حيواني مشدود. كل ألوان القارة المفقودة، بعضها لونها أزرق داكن مثل القراصيا أو أصفر مثل الذرة. بعض الأقنعة مصنوعة من خشب الأبنوس، أسنانها بارزة ولونها أحمر فاقع، مربعات بلون الرماد وداخلها حواجب كثيفة وذقن طويلة وحادة تمامًا مثل الجبين، كانت الأقنعة تلمع كأنها تُدهن بالزيت يوميًا. بعضهم كان مُقبقب الشكل مثل إناء تحفظ داخله الأنغام أو ربما الجعة المصنوعة من الدخن.

رأى هيسه الأقنعة معلقة بشرائط لونها أبيض وأحمر وكانت هذه الشرائط تروض في عيونه وحشية الأقنعة. كانت الشرائط مُثبتة في داخل تجويف المخ لتمنع الأقنعة من الإنفلات والقفز من داخل الغرفة المظلمة إلى حقل الخضروات في الخارج.

لاحظ كوخ هيسه وهو يحدق في الأقنعة فقال: "لقد هاجر معظم إخوتي إلى أوروجواي والمكسيك وأمريكا بالطبع. لا أعرف أحيانًا سببًا حقيقيًا لبقائي في برلين المليئة بالعواصف. نعم، الترحال، المغادرة دون الالتفات للخلف والنظر إلى ما نتركه ورائنا، أبدًا. هل ذكرت أيها الشاب مكان دراستك؟"

"لايبتسيج سيدي البروفيسور، لدى البروفيسور ليبريشت فاجنر. أخذت فكرة عابرة لدى البروفيسور بيتنكوفر في ميونيخ."

"لدى بيتنكوفر، هذا العجوز الرومانسي؟ يا إلهي! هذا البني آدم لن يعترف بجرثومة مرض السل حتى وإن وضعنا دائرة حمراء حولها. كيف ستكون حياتي دون خصومي العلميين وقصر نظرهم الذي لا يعرف أي حدود. كنت سأنظر في هدوء عبر المهجر، وأصف عالم الجراثيم، قسم وراء الآخر. كنت سأموت من الملل دون كل هؤلاء أشباه بيتنكوفر وباستير. ولكن: على الرغم من امتناني لوجود أعدائي، أتمنى ألا تنتظر أن عملك لدى العجوز بيتنكوفر سيعزز موقفك لوظيفة في معهدي؟"

فتحت الأقنعة الأفريقية أفواها المنحوتة من الخشب وأصدرت ضحكات صارخة.

اعتدل كوخ بحماس في جلسته، السخرية من تلميذ لبيتنكوفر أمر منعش، زاد من ذلك اضطرار هذا التلميذ للاستماع إليه، فهو متقدم لوظيفة في معهده.

"آه يا هيسه، يبدو أن هذا الخبر لم ينتشر في ميونيخ بعد: إن الأمراض لا تنشأ بسبب الروائح الكريهة بحسب نظرية الميازما كما يسميها أستاذك العجوز صاحب التعليم اليوناني. إن مسببات الأمراض لها أسماء محددة، لكل مرض مسبب: الجمرة الخبيثة سببها ميكروب الجمرة الخبيثة، عدوى الجروح لها مسببات تختلف من حيوان لحيوان ومن جرح لآخر، والسل مسببه جرثومة السل. من ضمن إنجازاتي المتواضعة اكتشاف كل هذه المسببات ووصف حياتها. إنها أمنيتي الطموحة أن ننجح في تسميتها جميعًا وتحديدها. بمجرد تسميتها سنتمكن من ضربها بدقة، كل جرثومة بوسيلة خاصة. من المؤكد إنك سمعت عن جرثومة السل في شفارسنبرج؟ عندي حق إذًا. من يؤمن مثل بيتنكوفر بالروائح الكريهة سيعتقد أيضًا إننا فعلنا كل ما وسعنا بفتح النوافذ والتهوية الجيدة. لماذا تريد بحق السماء أن تعمل في معهدي؟"

لعن هيسه نفسه لأنه ذكر بيتنكوفر، فهو لم يدرس حتى لديه؛ بل كانت بعض الأشهر التي قضاها في معهده. عرف بعض المعلومات السطحية عن نظم المرافق في المدن. رأى العجوز مرات قليلة؛ إذ كان مشغولًا بآلاف الأمور. يتذكر هيسه إنه سمع مرة بعداوة كوخ وبيتنكوفر. لماذا يجب أن يمنح لنفسه أهمية بذكر أسماء آخرين؟ من ناحية أخرى: لم يكن بيتنكوفر العجوز مخطئًا تمامًا حينما أراد تحويل مياه الصرف في قنوات وتحلية مياه الشرب. لم يكن البشر هم السبب في أمراضهم.

جلس كوخ معتدلًا خلف مكتبه. سأل هيسه نفسه عن تخيله لكوخ كأنه خنفساء مخيفة تحدق فيه من خلف زجاج نظارته المستدير.

"أنا نفسي كنت لسنوات طبيب حي، طبيب أرياف بسيط في بوزن. لا تبدو لي مثل شخص أمنحه وظيفة في معهدي، لن تبقَ معي. أستطيع أن أبوح لك إنني كثيرًا ما أحن إلى مدينتي فولشتاين الهادئة التي لا تعرف التوتر."

سألت السيدة كوخ: "هل تحب تناول قلب العجل مع المعكرونة العريضة؟"- انتبه هيسه من قبل لصوتها المبحوح.

دخلت وقاطعت البروفسور الذي كان مندمجًا في عداوته المتحمسة ضد باستير والفرنسيين بشكل عام.

"بالطبع سيدتي الفاضلة، أحب قلب العجل جدًا!" ليس من ضرر في حب تناول قلب العجل. كان هيسه قد نهض من مكانه. الناس في شفارسنبرج تعرف أيضًا أصول التعامل.

"إذًا فلتشاركنا تناول وجبة العشاء. أظن يا روبرت إنك تدعو المرشحين للوظائف هنا إلى المنزل لتحدق هذه الأقنعة المخيفة فيهم، فتراقب نجاحهم في امتحان الشجاعة. فليحصلوا على وجبة طعام محترمة على الأقل. هل لاحظت أيها ...أيها المرشح أن كل هذه الأقنعة المخيفة مثبتة بأناقة في مسمار ولا يسعها أذيتك؟ إنها غريبة جدًا وبريئة جدًا، تفضل الآن."

كانت غرفة الطعام مظلمة مثل سائر غرف المنزل. ربما يؤلم نور النهار عيون كوخ قليلًا؛ إذ كان يحدق بالساعات في المجهر. كانت جفونه ملتهبة.

كان حساء السرفيل هو الوجبة الأولى.

" يزرع فيتولد السرفيل في الحديقة، أراد روبرت استخدام لونه الأخضر لتلوين جراثيمه؛ ولكنها رفضت هذا السرفيل بكبرياء. لذلك لم ينجح في الوصول إلى مجهر روبرت بل إلى صحوننا بدلًا منه. أضع في الحساء بعض وريقات عشب الثوم البري وأتمنى أن يعجبك مذاقه. فيتولد يزرع الثوم البري أيضًا بنفسه. فيتولد هو المسؤول عن زراعة حديقتنا، فيتولد كرول، ربما رأيته أثناء دخولك."

هز هيسه رأسه.

"لا تقلق، ستتعرف عليه لاحقًا. هو الذي يقرر تعيين المرشحين في المعهد. حينما يظهر مرشح هنا في الأفق أجده هو وروبرت يتشاوران في الأمر. لا أحد يسألني عن رأيي. إنهما يعتقدان أنني أنظر إلى المتقدمين من منظور أنثوي بحت، بصفتهم ذكورًا."

احمر وجه هيسه خجلًا.

كان طعم حساء السرفيل رائعًا. تناولها ببطء ليؤجل اللحظة التي سيضطر فيها للتعامل مع قلب العجل.

ظهر شتورم قبل قدوم لحظة قلب العجل. استبدل المعطف المصنوع من القطيفة بمعطف زي موحد، لونه أخضر بأكتاف عريضة ومشرشبة. وعدد لا حصر له من التطريزات والربطات، وحزام جلدي بعرض الصدر. تدلى من الحزام وحتى الأرض غِمْد سيف فارغ. كان هناك تناقض غريب بين نظرة القرد المسترخية وهذا الزي الموحد بألوانه الصارخة.

بينما كان شتورم يتسلق المقعد المجاور لسيدة المنزل قال كوخ في ضيق: "يا إلهي يا إيمي، من أين أتى بهذا المعطف؟" أخذ الحيوان كوب الحساء نصف الممتلئ والخاص بالسيدة كوخ وشربه بالكامل، ثم وضع الكوب بأناقة أمامها مرة أخرى.

"لقد جلبها فيتولد له، إنه قلق بشأن شتورم، لأنه كان في الفترة الأخيرة مصابًا بالخمول والكآبة. ظن فيتولد إن المعطف الجديد ربما يسعده، بدلًا من زي الفارس القديم والممل."

"هذا ما يظنه فيتولد حقًا؟ أيعتقد أن الحماس لتغيير الزي الموّحد يتناسب مع طبيعة القرود؟"

"آه يا روبرت، أنت الذي تقول ذلك في حين أن عيناك تدمع حينما يقع نظرك على جوز من الكتفيات العسكرية. اترك شتورم لحاله، أنت ترى حجم فخره. دعنا نوجه الأسئلة لضيفنا. ماذا تفعل حينما لا تكون في برلين ولست مضطرًا لتحمل غرائب منزل عائلة كوخ، يا سيد... لا أعرف سببًا لنسياني الدائم للقبك. دعنا نحاول استخدام اسمك الأول، ما اسمك الأول؟"

"اسمي فالتر سيدتي الفاضلة."

"سوف أناديك إذًا بفالتر. أستطيع تذكر هذا الاسم."

وضعت كمية كبيرة من قلب العجل في صحن هيسه. تساءل الآخر في نفسه لما لا يأكلوا القرنبيط المحمر الذي شم رائحته النفاذة في المدخل.

"سيدتي الفاضلة، أنا طبيب حي بسيط في شفارسنبرج. أمراض الرئة بسبب الأتربة وسرطان الرئة وقلة النظافة في شقق المرضى عمال التعدين، تلك هي الأحداث المثيرة في حياتي العملية."

"وتريد الآن استبدالها بالأحداث المثيرة والأنيقة في برلين؟"

"نعم أتمنى ذلك بالفعل يا سيدتي، حقًا. وأن كان الأمر لا يتعلق بالأناقة، لا يتعلق الأمر بالأناقة في كل حال من الأحوال. ولكنك لم تقصدِ ذلك بالطبع."

ساد الصمت.

امتدت لحظات الصمت، أصوات تناول شتورم للطعام فقط. كان هيسه متأكدًا إنه هو، الرجل الريفي، السبب في هذا الصمت.

تردد للحظة ثم انخرط في عرض مشروعه المفضل: تجهيز الشقق في المدينة بالشطافات. لم يكن متأكدًا للحظة إن كانت الشطافة تصلح. لتكون محور الحديث على المائدة؛ ولكنه وجده نوع من الإثارة أن تستمع له سيدة، هذا يحدث نادرًا.

تبلورت في هذه اللحظة فكرة لديه مفادها أن الشطافة سيكون لها فضل كبير في المساواة بين الجنسين؛ حيث أن المبولة لا تلبي إلا طلب الرجال. كانت ثقافة النظافة العامة، بحسب رؤية هيسه، قائمة على فكرة الوقوف. أما الشطافة بتصميمها العبقري ستتيح المجال لفكرة الجلوس وبالتالي ستمهد الطريق لثقافة نظافة عامة أنثوية.

تعمق هيسه في تاريخ الشطافة (البيديه) التي يأتي اسمها الغريب من اللغة الفرنسية ومعناه الأصلي الفرس الصغير. تحدث عن تفاصيل المد بالمياه وقوة اتجاه الماء، وعن تنوع الاستخدام؛ إذ يُمكن غسل القدمين في البيديه، وهو أمر نادر الحدوث. كان الموضوع يهمه حقًا.

كلما تعمق في التفاصيل كلما زادت قناعته إن الأمر ليس في صالح المساواة فحسب؛ بل إنه في صالح الصحة العامة تناول تلك الأمور دون خجل ليس في محله، وبانفتاح وموضوعية حديثة؛ حتى أثناء تناول قلب العجل مع المعكرونة العريضة.
لاحظ هيسه سريعًا أن السيدة كوخ ليست مهتمة بالموضوع؛ إذ كان شتورم يشتت انتباهها. كان يحاول تضفير عقد من المعكرونة ليضعه حول رقبتها. سمحت له بذلك ووضحت له كيف يضفر شرائط المعكرونة، كانت تنفخ فيها حتى لا يحترق جلد الرقبة الرقيق.

لم يُظهر روبرت كوخ اهتمامًا بالشطافة؛ أمر غريب بالنسبة لمدير معهد الصحة العامة. كان مهتمًا بشأن آخر، معركته ضد التيفود والتي أراد بالضرورة الحديث عنها.

"أُرسل لي من منطقة هوخلاند بالقرب من مدينة تيرير عينات براز مليئة بجراثيم مرض التيفود."

لم يفهم هيسه كلمة واحدة، ولكنه شعر بالفخر أن كوخ يحدثه كأنه خبير في عينات البراز وجراثيم مرض التيفود والمعركة في منطقة هوخلاند.

صاح كوخ: "الجراثيم الصحية، من فضلك! هذه الجراثيم الصحية مهزلة حقة."

سأل هيسه: "اسمح لي سيدي البروفيسور، هل تمثل فكرة إن هؤلاء البشر أصحاء مشكلة؟" وجد سؤاله بقدر الذكاء الذي تتوقعه العاصمة من طبيب أرياف قادم من جبال الخام.

لم يكن كوخ قد سمعه، واصل حديثه بغضب متصاعد:

"إنهم يريدون في الخطاب المصاحب للعينات إقناعي إن أصحاب عينات البراز أشخاص أصحاء تمامًا. مستحيل! أصحاء بأمعاء تعج بجراثيم مرض التيفود! يعلم الله من أين جاءت عينات البراز هذه في الحقيقة. إن أردنا القيام بإجراء علمي سليم يجب أخذ عينة البراز هذه أمام العامة، أو على الأقل تحت المراقبة. هذا هو السبيل الوحيد للتأكد من أننا لا نحصل على عينات براز خاطئة."

ظل هيسه يدفع بشرائط المعكرونة يمينًا وشمالًا دون أن يفهم شيئًا.

"يا إلهي سيد هيسه، دع المعكرونة وشأنها. من المؤكد إنك سمعت عن اكتشافي: الأمراض المعدية سببها كائنات حية أستطيع تلوينها وتكبيرها ورؤيتها تحت مجهري، لذلك اسمها ميكروب. هذه هي النقطة الأولى: الميكروب أو الجرثومة يصيبونا بالمرض، هي المسبب، هي العدو. من المؤكد إنكم في شفارسنبرج قد سمعتم عن ذلك.

أومأ هيسه بشدة برأسه.

"إذًا نستنتج النقطة الثانية: من المؤكد إننا سنجد المرض حيثما نجد الجرثومة. ماذا سيكون موقفي حينما يتجول في منطقة هوخفالد مجموعة من البشر لديهم في البراز عدد لا حصر له من جراثيم مرض التيفود. هؤلاء التعساء لا يلحظون شيئًا ويتمتعون بصحة جيدة! أين هذا العدو الذي سيترك لك صحتك؟ إن لن نرى المرض في العيون المصابة بالحمى والوجنات المجوفة، ونجد الشخص صاحب الصحة الجيدة غير المثير للشك يحمل هذه الجراثيم، يجب علينا إذًا الكشف على الجميع. في هذه الحالة يُمكن أن يكون أي شخص هو هذا الخنزير الذي يترك الجراثيم في مطبخك أو حمامك."

فكر هيسه في أن موضوع الشطافة الذي أثاره ليس بالغرابة التي تمنع تناوله على مائدة الطعام.

"المصلحة العامة تدفعني لاتخاذ الإجراءات من أجل بدء معركتي ضد مرض التيفود. خاصة في الشمال! خطة شليفن، أنت أديت الخدمة العسكرية. ولكن ليس بإمكاني وضع أمر مؤكد بين يدي الوزير قبل تحري حقيقة مَن يزعمون أنهم بصحة جيدة. الخطوة الأولى إذًا: توضيح الخطوات الإجرائية، الخطوة الثانية: إعادة الكشف بشكل دقيق على جراثيم التيفود. أنا بحاجة لمنهج أفضل في زراعة هؤلاء الوحوش حتى أكون متأكدًا. مع خبث هذه الجراثيم لن أعرف إن كانت تتخفى."

في هذه الأثناء وقف القرد على كتفي السيدة كوخ، كانت أصابع قدميه تضغط على القماش الحريري لبلوزتها. حاول وضع العقد المصنوع من المعكرونة حول رقبتها. كانت تضحك كأنه يدغدغها بأصابع قدميه الماهرة، نظرت إلى هيسه واحمرت وجنتيها.

"تعرف، شتورم لا يستطيع التعامل مع الرجال، ولم يكن ليه شخص غيري على مدار السنوات الأخيرة. إنه يسخر من كل هؤلاء الرجال المرتدين للزي الموحد والذين يطلبهم زوجي لتناول الطعام معنا. لا أملك منعه، فأنا قليلة الحيلة تجاهه. أنظر إليه، هل تستطيع رفض طلب له؟ فضلًا عن أننا لدينا التزام تجاهه، لقد توفى توأمه منذ زمن، ونحن ندين له بالكثير. أظن أحيانًا إن وجود البشر حوله ربما يساعده، تحديات عاطفية وعلاقات مثيرة وهوى جديد."

شد هيسه في شعر شاربه، يبدو ثقافة الجلوس لم تجد اهتمام الذي توقعه من زوجة البروفسور كوخ.

دون أمل كبير غير موضوع الحديث.

قال وهو يحاول هباءً مداعبة شتورم: "زوجتي تحكي لي أحيانًا عن القرود. إنها تنتمي لعائلة هولندية فرنسية، ويعيش فرع لعائلتها في مدينة يافا. نجد هناك الكثير من القرود، إنهم أيضًا وجبة مفضلة هناك. بعض الهولنديين يربوهم في المنازل، لقد رأت فاني ذلك بنفسها."

سأل كوخ، الذي عاد فجأة من رحلته الذهنية إلى منطقة هوخلاند، وبنوع من الإلحاح: "زوجتك لديها خبرة في التعامل مع القرود؟"

"نعم سيدي البروفيسور، إنها خبرة بدرجة تسمح لها بالتعامل دون خوف مع هذه الحيوانات. أعتقد أنها قادرة على التعامل معهم، هي لها أسلوبها الخاص."

لم يتطرق الحديث إلى أسلوب السيدة فاني هيسه الخاص بها، إذ بدأ الزوجان في الشجار على فاني التي لم يعرفوها بعد. لم يفهم هيسه شيئًا، سوى أن توأم شتورم المتوفي له دور في ذلك. يبدو أن السيدة كوخ كانت مقتنعة بأن زوجها قد قتله بتجاربه الطبية. أما البروفسور فكان واضحًا إنه يسعى لإخراج شتورم من المنزل. كان من المفترض أن عامل الحديقة فيتولد يتولى رعاية شتورم؛ ولكن لأسباب ما لم يكن ذلك متحققًا. الغريب أن لكل ذلك علاقة بفاني هيسه.

"شتورم وتعلقه المَرَّضي بالزي الموحد، كيف لي أن أدعو كبار الجنرالات إلى المنزل والقرد يتجول بمعاطف الفرسان؟ سيظنون أنني أسخر من الوطن. كيف لي دعوة أي شخص إلى المائدة وهذا الحيوان يقفز أثناء الطعام فوقك. هذه قذارة وكارثة صحية واجتماعية أيضًا، في حين يجب عليَّ دعوة الأساتذة فهذه أبسط مطالب الأدب. إنني أتعجب في كل مرة من عدم اكتراثك بتقدمي الاجتماعي."

انتهى العشاء بحالة من الفوضى. ظل كوخ يسأل هيسه عن يافا وخبرات فاني. لم يكن هيسه متأكدًا من الفترة الزمنية التي عاشتها فاني هناك. ربما كان ما يتذكره مجرد حكايات لأولاد وبنات أعمامها، بينما لم تمضِ فاني سوى إجازة أو اثنين في يافا.

كان شتورم يشد صاحبة المنزل من ملابسها.

شرحت ضاحكة وصحن قلوب العجل يسقط على الأرض: "إنه يريد مني الثناء على عقد المعكرونة أمام المرآة في غرفة النوم." حاول هيسه تقديم الشكر على العشاء، مؤكدًا أنه سيجد باب الخروج وحده. تبعه البروفيسور إلى الطرقة وطلب منه بإلحاح أن يأتي في اليوم التالي مرة أخرى ويحضر معه زوجته القادمة من يافا.

جلس هيسه مع زوجته في الفندق على الفراش وتشاورا حول الأمر. ستصطحب فاني في اليوم التالي زوجها في زيارة إلى عائلة كوخ. ألم يدعوها البروفيسور بنفسه؟ بلى. أرادت التعرف على هذا القرد الذي يلعب دورًا رئيسًا في حياة عائلة كوخ.